صمت المؤمن

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

إنَّ من أعظمِ خصـالِ الْمُؤمنِ الْمُوحِّدِ الصـَّمتُ، ولكنَّ معظمَ النَّاسِ لم يفهَموا معنى الصـَّمتِ الحقيقيِّ الـذي أُمِرنـا بـه، فـأخـذوا الكلمةَ بمَدْلُولِها الحرفي دونَ الغوصِ في الْمُرادِ منها، فسـَقَطوا بقياسِهم واجتهادِهم.

فالضـُّعفاءُ ظَنُّوا أنَّ الصَّمتَ هو السُّكوتُ عن قولِ الحقِّ، والهروبُ من مواجهةِ الباطلِ، لذلكَ تراهُم كلَّما نَطَقْنَا بالحقِّ ودَافَعْنا عنهُ لِدَحضِ الباطلِ ثارُوا ضِدَّنا شـَتمًا وتَطَاولوا علينا واتَّهمُونا بخَرقِ التَّقيـَّةِ، ورَدَّدُوا كلمـاتِهم الْمَأثورةَ: ليسَ هنا مكانٌ للأحاديثِ الدِّينيَّةِ! ومَن كلَّفَكُم بالرَّدِّ؟ واللهُ يحفظُ دينَهُ! ومَن ذهبَ فليَذهَبْ... إلخ!

كما كان أسـلافُهم يعانِدونَ العلماءَ فيقولونَ لهم: لِمَاذا تكتبونَ؟ ومَن كلَّفَكُم بالرَّدِّ؟ لقد كتبَ مَن سَبَقَكُم ولم يَتركوا شيئًا! حَسْبُكُم ما بينَ أيديكِم!

هؤلاء أغواهُم إبليسُـهم فَخَرجوا عن صَمتِهم لِمُعارَضَةِ الحقِّ فوقعَ فيهم قولُ سيِّدنا رسولِ اللهِ محمَّد (ص) حينَ قالَ له رجلٌ: يا رسولَ اللهِ أَوْصِنِي. فقال (ص): (احفَظْ لِسَانَكَ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ على مَناخِرِهم في النَّارِ إلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهم).

أمَّا الأشـرارُ من أشـباهِ العلماءِ الذينَ نَصـَّبوا أنفسـَهُم مُفتِينَ في النَّاسَ، فقاسـُوا برأيهم تعطيلاً واجتَهَدُوا بأهوائِهم تشبيهًا، تَرَاهُم يُعيثـُونَ في الدِّينِ فسادًا كما سبقَهم التِّسعةُ الرَّهطُ في قولِهِ تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْـعَةُ رَهْطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ)، فالْمَدينةُ هي مدينةُ العلمِ التي قالَ فيها سـيِّدنا رسـولُ اللهِ محمَّد (ص): (أنا مدينةُ العلمِ)، وهؤلاء الرَّهطُ يُفسِـدونَ أبناءَ هذا الدِّينِ القويمِ بمقالاتِهم وكتاباتِهم ومُعتَقَدَاتِهم الْمَليئةِ بشـُبهاتِ التَّشـبيهِ وبدَعِ التَّعطيلِ، فإذا نَبَّهْتَهم عن أخطائِهم لا يُصـلِحُون، بل يَستمِرُّونَ في الإفسادِ لأنَّ هذا دَيدَنُهم ولهم عذابٌ في الدُّنيا والآخرةِ، وقد صَدَقَ فيهم قولُ سيِّدنا رسولِ اللهِ محمَّد (ص): (مَن لَمْ يَحْسُبْ كلامَهُ كَثُرَتْ خَطَاياهُ وحَضَرَ عَذَابُهُ).

أمـَّا الْمُؤمنونَ الْمُخلِصـُونَ فَتَراهُم كمـا وَصـَفَهم تعالى بقوله: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّـائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّـاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ)، فَهُم يَحفَظونَ حـُدُودَ اللهِ تقيَّةً ولا يَتَعَدَّونَها، ويُقيمُونَ أصـــولَ التَّوحيدِ أمرًا بالْمَعروفِ، ويَردُّونَ على شُبهاتِ التَّشبيهِ وبِـدَعِ التَّعطيلِ نَهيًا عن الْمُنكَرِ، كما جاءَ الأمرُ عن سيِّدنا النَّبيِّ عيسى المسيح (ع) بقوله: (ابقَوا في بُيوتِكم، واترُكوا الخَطيئةَ، واعبُدُوا اللهَ بخَوفٍ فبهذا تُخلِصُون، لأنِّي لم آتِ لأُخْـدَمَ بـل لأَخْـدِمَ)، فـالبقاءُ في بيتِ التَّوحيدِ، وتركُ خطيئةِ التَّشـــبيهِ والتَّعطيلِ، وعبادَةُ اللهِ بالْمُجاهَدَةِ خوفًا من الضَّياعِ هي الإخلاصُ في خدمةِ الحقِّ.

وهكذا يكونُ التزامُ الصـــَّمتِ الْمَحمودِ الْمَوســـومِ بالتَّوحيدِ، فلا هُمْ للحقِّ نَافُونَ مُنكِرونَ، ولا للأسماءِ والصِّفاتِ والأفعالِ والأشياءِ عابدونَ، بل عِبَادٌ مُخْلِصونَ بالتَّوحيدِ إثباتًا وإفرادًا لقوله تعالى: (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد